

قصص واقعية للمتقدمين والمتأخرين والمعاصرين

الجزء الثالث (3)

إبراهيم بن عبد الله الحازمي

مصدر هذه المادة:





المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وبعد:

فلا شيء يجز في النفس ويؤلمها.. وينغص عيشها مثل الظلم.. فإن المظلوم يتألم ممن ظلمه وأذاه بغير حق.. ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية ونهت عن الظلم، وورد الوعيد الشديد في القرآن والسنة في الظلم بأنواعه، وفي هذا الزمن الذي انقلبت فيه كثير من القيم والأخلاقيات وتأثر كثير من الناس بالدنيا وزهرتها.. وأصبحت همهم دومًا وأبدًا فمن أجلها يتظالمون.. ومن أجلها يعملون. وما علموا أنها جيفة قذرة.. عنها راحلون.. وعن أعمالهم مجزيون.. والسعيد من وعظ بغيره.

فكتبت هذه القصص التي فيها عبر. لمن ألقى السمع.. وهو شهيد. وحتى يعلم المظلوم أن الله ناصره ومؤيده.. ويطمئن قلبه.. أما الظالم فليعلم أن دعوة المظلوم مستجابة، وأن سهام الأسحار نافذة. أيها المظلوم.. اصبر وما صبرك إلا بالله. ولا تيأس.. واعلم بأن نصر الله قريب.. آهاتك وزفراتك وآلامك احتسبها عند الله. وما عند الله خير للأبرار.

وتذكر قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ**﴾ إنها أعظم تعزية للمظلوم. وأبلغ تحذير للظالم.. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.. وما أجمل قول الشاعر:

اصبر على الظلم ولا تنتصر فالظلم مردود على الظالم
وكِل إلى الله ظلومًا فما ربي عن الظالم بالنائم

وقال أبو العتاهية:

ستعلم يا ظلوم إذا التقينا غدًا عند المليك من الملوم

أيها الظالم: تذكر قدرة الله عليك، وسطوته، وشدة عذابه.

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

كم من أمم أزيلت بسبب الظلم.. وكم من أشخاص سقطوا بسبب ظلمهم للعباد، حتى الطيور تشكو من ظلم الظالمين.

نامت جفونك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

أسأل الله سبحانه أن يجنبنا ظلم الظالمين وكيد المنافقين، وفجور الفاسقين.. وأن يجعلنا من عباده الصالحين.. اللهم آمين .. آمين

وكتب

إبراهيم بن عبد الله الحازمي

عفا الله عنه وسدد خطاه

٤٢- حسبنا الله ونعم الوكيل

آذنت الشمس بمغيب وتجمعت الأسر حول المائدة لتناول وجبة الإفطار في يوم من أيام رمضان، ينتظرون الأذان، وفي زاوية من زوايا القرية الجاثمة قرب الترعة، بيت يدلّك مظهره على ما يعانيه أهله من بؤس وضيق، ولو اطلعت على الطعام الجاف القاسي الذي استقر أمام تلك الأسرة لرثيت لحالهم، ومع ذلك فقد كان الكل يقول: الحمد لله، الحمد لله، فهو الذي يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء لحكمة يعلمها، وقد كان رب الأسرة البائسة شارد الفكر يستعيد في قلبه الحديث الذي دار بينه وبين ذلك الطاغية الجبّار، لقد تهدده وتوعده إن لم يعد له المبلغ الذي اقترضه منه اليوم قبل الغد ليعذبنه عذابًا شديدًا، ومن أين لهذا المسكين أن يعيد هذا المبلغ؟ وهو لا يستطيع أن يجد لأولاده لقمة العيش.

ولكن كيف يواجه ذلك الطاغية الذي أعطي بسطة في الجسم، وقلة في العلم، رافقها قسوة في القلب، وفظاظة في القول، وأفاق على خيالاته وتأملاته وإذا بصوت مزعج خارج المنزل يرغي ويزبد، اقترب الصوت وفتح الباب بعنف من دون استئذان، ثم دخل فنظر المسكين وإذا به الشقي الجبار يقف كالمارد أمام الأب المسكين، الذي تحيط به أسرته البائسة، ومن غير كلام ولا مقدمات تناول الطاغية ذلك المسكين وأخذ يضربه بيده ويركله برجله ويسبه ويشتمه.

وارتفعت أصوات أسرة المسكين تبكي وتنوح وتقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، وبعد ألم شديد ألحقه الجبار العنيد بالمسكين خرج

متكبرًا متبخترًا تاركًا أب الأسرة الفقيرة كالميت على فراشه، وانطلق صوت المؤذن لصلاة المغرب وهو يقول: الله أكبر، وبعد الأذان اجتمع عند المسكين وأولاده وقتا إجابة للدعاء، أحدهما بعد الأذان، والثاني عند الإفطار، فنظر المضروب إلى الضارب في هذين الوقتين، ورفع يديه إلى السماء، ثم قال: الله ينتقم منك، الله ينتقم منك، ومرت أيام عشرة فقط، وإذا بذلك الظالم يشكو من ألم في ساقه، فنقل إلى المستشفى وعملت له الإجراءات الطبية من الكشف والتحليل والأشعة، وحار الأطباء في مرضه فنقل إلى مستشفى أكبر وأكثر عناية، وقرر الأطباء أن الألم نتيجة مرض السرطان الذي أخذ ينتشر في قدمه، ولا علاج إلا ببترها، وقال: أيها الأطباء مهلا تأكدوا قالوا: عملنا جميع الاحتياطات، وبذلنا كل الجهود وما وجدنا إلا السرطان.

قال: أتقطعون قدمي؟ قالوا: نعم، قال: اقطعوها؛ لأنام وأستريح، وخرج من المستشفى بقدم واحدة، لا يستطيع المشي عليها وقد دخل بقدمين، إنما دعوة المظلوم قطع الله بها تلك القدم الآثمة التي ضرب بها هذا المسكين الذي لا حول له ولا قوة إلا بالله، وقد جاءه النصر من عند الله، وأصبحت قصته حكاية تروى ممثلة عاقبة الظلم، ومصير الظلمة، فإن الله يمهل ولا يهمل[١] ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧].

---

(1) مواقف ذات عبر للدكتور عمر الأشقر.

٤٣- الله شديد العقاب

عن أبي بكرة بن أمية قال: كان لنا في بلاد بني ضمرة جار من جهينة في أول الإسلام، ونحن على شركنا، وكان منا رجل محارب خبيث يقال له: ريشة، وكنا قد خلعناه لخبثه، فكان لا يزال يعدو على جارنا ذلك الجهني فيأخذ من ماله البكرة والناب والشارف من إبله، فيأتينا الجهني ويشكو إلينا فنقول له: والله ما ندري ما نصنع به، قد خلعناه وتخلينا عنه وتبرأنا منه لسوء فعله وخبث طويته، وليس لك إلا أن تقتله قتله الله وأراح المسلمين من شره فهذا شيطان من شياطين الإنس لا يريد إلا المعاصي وأذية الآمنين.

وقلنا له لو قتلته لا يتبعك من دمه شيء تكرهه أبدًا حتى عدا مرة من المرات على ذاك المظلوم، فأخذ من ماله ناقة له من أجود إبله، فأقبل بها إلى شعبة الوادي، ثم نحرها، فأخذ سنامها ومطايب لحمها، ثم تركها، وخرج الجهني في طلبها حين فقدها يلتمسها، فاتبع أثرها حتى وجدها حيث نحرها، فجاء إلى نادي بني ضمرة وهو متألم أشد الإيلام، تكاد الحسرة تفتت قلبه، وقال لهم:

أصـــــادق ريـــــشة يــــا آل ضـــــمرة
أن لـــــــــيس لله عليـــــــــه قـــــــــدرة
مـــا إن يـــزال شـــارف وبكـــره
يطعــــن منهــــا في ســــواء الثغــــرة
بــــــصارم ذي رونــــــق أو شــــــفره
لا هــــم إن كــــن معــــدًا فجــــره

فاجعـــل أمـــام العـــين منـــه جـــدره
تأكلـــــه حـــــتى تـــــوافي الجهـــــره

قال: فاستجاب الله دعاء المظلوم ونصره على ظالمه، إذ أخرج الله أمام عينيه في مآقيه حيث طلب بثرة مثل ثمرة السدرة، وخرج الناس إلى الحج لأداء الطاعة واللجوء إلى الله تعالى، وبقي هذا الظالم يعاني من هذه البثرة التي جعلت الليل نهارًا والنهار ليلا، وضاقت عليه نفسه، وأخذت تكبر يومًا بعد يوم حتى أكلت رأسه كله، وما أبقت فيه شيئًا من الحياة، فما أن رجع الناس من الحج إلا وقد مات، وطهر الله الأرض من رجس ذلك الظلوم الجهول، فهل نعتبر يا أولي الألباب؟ اللهم رحمتك يا كريم [١] .

٤٤- عاقبة العقوق

نجح وائل في اختبار الشهادة الثانوية، بفرعها العلمي. ففرح به أبواه أشد الفرح، وابتهجا به غاية الابتهاج، وتمنيا له مستقبلا باهرًا، ثم جلس الأبوان مع ولدهما للتشاور في العلم الذي يرغب في دراسته، والفرع الذي يميل إليه؛ لكي يجيد فيه ويفيد، فأجاب وائل: أرغب في دراسة الطب البشري في جامعة السوربون بباريس عاصمة الجمهورية الفرنسية، وافق الوالدان على رغبة ولدهما ووحيدهما وائل وعقدا عليه كل الأمل، كان الوالد تاجرًا موفقًا تدر عليه تجارته ما يعيش به عيشة رغيدة مع أسرته، وكان صالحًا صادقًا أمينًا لم يتعود الكذب ككثير من

(1) مجابوا الدعاء لابن أبي الدنيا (٤٥).

التجار، فأحبه الناس ووثقوا به، وحرصوا على التعامل معه.

وشاء الله أن ينتسب الولد إلى الجامعة الآنفة الذكر؛ ليدرس الطب وقد رصد له والده مبلغًا لدراسة وحيده وفلذة كبده ومعقد أمله وائل، وسارت الأيام على ما يرام،وكان الوالد يرسل كل ثلاثة أشهر ما يكفي ولده، وسكن في شقة صغيرة استأجرها من عائلة فرنسية تقيم قريبًا من الجامعة، وتعرف على ابنتهم التي امتازت بجمالها البارع، وطولها الفارع، وتوثقت العلاقة بينهما على مر الأيام، وازداد الحب والانسجام وأصبحا زميلين متحابين، ولكنها زمالة الذئب مع الغنم، فالإنسان هو الإنسان والفتاة هي الفتاة، والشيطان يلاحق الناس في كل مكان. ويزين لهم الغي والعصيان، وصدق عليه الصلاة والسلام «**ما خلا رجل بامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما**». اعتادت الفتاة أن تدخل شقة وائل في أي وقت تشاء، وكان يأنس بها ويشفي غليله كما أنها ولعت به وهامت في هواه. واعتاد وائل أن يغدق عليها من عطاياه، وأن يبذل بسخاء من هداياه، وصدق من قال: ومن أخذ البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد، كان والده يكدح ويتعب والولد يلهو ويلعب والحرام كالبالوعة الواسعة، لا يبقى من المال ولا يذر، واشتغل فكر وائل بخليلته وتخلف في دراسته، فكانت كل سنة دراسية عنده سنتين، والأهل في غفلة عن هذا وجهل بحقيقة الأمر، أما أهل الفتاة الفرنسية فكانوا لا يكترثون، ويعلمون ما يجري ولا يبالون، لقد أعطتهم حضارتهم المادية حرية دون قيود، وانطلاقًا دون حدود، مما دفعتهم إلى الإباحية والفوضى والرذيلة، وضاعت الغيرة من النفوس باسم التقدم، فأمسى الانحلال رقيًا وسموًا، واستيقظ وائل

صباح يوم على بكاء فتاته الفاتنة وصياحها وعويلها، فقام مذعورًا مذهولاً يمسح عن خديها الدموع ويربط على كتفيها بكفيه، ويهدئ من روعها بعاطفة وإنسانية، ويهذب غيظ قلبها بكلماته، حتى إذا هدأت سألها عن سبب حزنها وبكائها فأجابته قائلة: إن والدي أخبرني أني قد بلغت السن القانونية التي ينتهي عنده التزام الأب بالإنفاق على ابنته، وطلب إلي أن أغادر المنزل أو أدفع إليه مائة فرنك أجرة السكنى.

وذلك يا وائل كثير ولقد رجوته كثيرًا أن يخفف لي هذا المبلغ فلم يقبل وتوسلت إليه كثيرًا فلم يجب، وقال لي: ادفعي ما طلبت وإلا فاخرجي إلى غير رجعة، وهنا انتهز وائل الفرصة.

وطلب منها الزواج الشرعي فلبت بسرعة كالبرق الخاطف، وذهبا إلى المحكمة وسجل الزواج وانتهى الشر والإزعاج، لقد انتهت مشكلة الفتاة لتبدأ مشكلة الفتى وائل، فقد أصبح مكلفًا بجميع نفقات فتاته أو زوجته، وطالب أهله بمضاعفة المبلغ المرسل إليه وتظاهر بالغلاء في الأسعار والتدهور في الأحوال، واستمر والد وائل يضاعف الإنفاق حتى نفد ماله فاحتار الرجل ولم يدر من أين يأتيه بالمال اللازم. وأمسى في حيرة من الأمر عظيمة فعرض المشكلة على زوجه فلم تبخل بما لديها من حلي، وسارعت إلى بيعه من أجل ولدها، وحبيبها وائل، وتحقيق مستقبل له باهر زاهر، ومع ذلك نفد المبلغ والولد مستمر على المطالبة بمزيد من المال لقد كان يتصرف دون اقتصاد، ويبسط يده كل البسط في الإنفاق، ولا يخطر بباله ما يعانيه الوالدان من أجله، وكيف يشقيان في سبيله ولقد ساءة حالة الوالد الاقتصادية

وتدهورت موارده المالية، والولد في غفلة وذهول، ولقد طالت مدة دراسته، وكان الوالدان ينتظران تخرجه بفارغ الصبر وعلى أحر من الجمر، وكانت الآمال تداعب خيالهما، والتمنيات المعسولة تفيض من قلبيهما، وكانت الأم خاصة تثبت زوجها وتزيل كربه وتسعده بقرب تخرج وائل الطبيب الماهر، الذي سيرد لهما الجميل أضعافًا مضاعفة، ويرفع ذكرهما إلى درجة سامية.

يرتبك الوالدان من البلاء ويئن قلبهما من شدة العناء. ولكن الولد يطالب بالمزيد المزيد من المال، ويعدهما باقتراب تخرجه كاذبًا فلم يجد الوالدان سبيلا سوى بيع الدار من أجل متابعة أطول مشوار، ويسكن الوالدان دار أجرة ريثما يتخرج الولد الوحيد ويعيد لهما المجد من جديد، ويستمر الوالد في إرسال المال إلى وائل إلى أن ينتهي ثمن الدار، ولم ينته المشوار.

ويستمر الولد في تبذير المال أيما تبذير وكأنه ابن وزير ولقد اعتاد في رسائله المطالبة بالمزيد، وكأن المال يأتي دون عناء، وإلى الوالد المسكين الذي أمسى في حالة يرثى لها، واحتار الوالدان أشد الحيرة أمام هذا المأزق العصيب، وكانا يهرعان إلى البكاء من شدة البلاء والهم والعناء، وأرسل الوالد إلى وائل أن مالي قد نفد، وداري قد بيعت، وحلي والدتك قد بيع أيضًا، فتصرف بعقلك ودبر أمرك بنفسك. ولكن وائل لم يصدق فقد ساء ظنه وقسى قلبه وبعد عن ربه وضل طريقه المستقيم، الذي رسمه خالقه الحكيم، وما كان منه إلا أن يستعين بالعمل لمتابعة ما تبقى من دراسته والحصول على الشهادة.

ووسوس إليه الشيطان المريد أن يصب جام غضبه على والديه وأن ينسلخ عنهما كما تنسلخ الحية من جلدها، وأن يقاطعهما إلى الأبد، وكان يوسوس له: لقد خان والدك الأمانة وضيعا مستقبلك وقطعا حبل رجائك وأخيرًا لا آخرًا تنتهي دراسة وائل، ويحصل على شهادة في الطب ولكنه استمر في العمل ليحقق الأمل ويجمع المال المطلوب؛ لفتح عيادة في بلده يوم أن يعود ويحقق أمله المنشود، وكان ما أراد وتحقق له المراد يوم أن عاد بزوجته ولم يعلم أهله وأقاربه، لقد عاد بقلب أقسى من الصخور، وأظلم من الديجور، وأضل من أهل الفسوق والفجور.

وعاش وائل مع زوجته الفرنسية بدون قلب مؤمن رحيم، وكان أشبه ما يكون بالأنعام الشاردة أو الشياطين الضالة، ولكن الله كان لهما بالمرصاد فلا يغفل عن أمر العباد، ولا ينام عن تدبير البلاد، فقد تنزه وتقدس عن كل عبث أو غفلة، أمد الحبل لوائل فازداد غيًا وضلالا، ولم يرتدع عن فساده، وظلمه وعناده، لقد كسب شهادة في الطب وأضاع الشهادة بالرب، لقد اكتسب ثقافة غربية، وزوجة أجنبية ولكنه خسر دينه وأخلاقه الإسلامية ومبادئه السامية الإنسانية، وأمسى في ليل الغواية بعد الهداية، وغرق في بحر من الضلال والانحلال ليس له آخر، وشاءت الأقدار أن يأتي إلى عيادته رجل من أصدقاء والده، فيذهل الرجل أشد الذهول، ويدهش كل الدهشة، وسرعان ما عاد إلى والد وائل ليبشره بالأمر الحاصل، فقد صار ولده طبيبًا وصارت له عيادة وعلق فيها منشور الشهادة، ويجيب الوالد: لا تسخر مني أيها الصديق الحميم، ودعنا في همنا العظيم

وغمنا المقيم، فما كان من الرجل إلا أن أقسم بالله جل وعلا أنه صادق فيما يقول، وأنه قد دخل العيادة وشاهد وائل حق المشاهدة، وقال: هيا بنا إلى عيادة الطبيب وائل.

وكان الوالد بين المصدق والمكذب، وسار معه مقدمًا رجلا، ومؤخرًا أخرى، وفي قلبه تعجب عظيم واستغراب لا يصفه بليغ حكيم، لقد كان يحدوه الأمل فيسرع في خطواته وينتابه الشك فيبتهل إلى الله بدعواته حتى وقعت عيناه على لافتة العيادة، وما أن قرأ اسم ولده عليها، واشتم رائحته بقربها، حتى ذرفت عيناه بالدموع تسابق الغمام، ولكنها دموع الفرحة بزوال الكربة، وصعد الاثنان درج العيادة ولا يكاد يصدق عينيه ويقول: هل أنا في حلم أم في علم، وهل أنا في سكرة أم صحوة وانتهى الدرج وما جاء الفرج، وشاهد وائل بأم عينيه، ولكنه تغير كل التغير وتبدلت حقيقته كل التبدل، وأمسى وكأنه لا يعرف والده، بل لا يريد أن يشاهده ويعرفه انتقامًا منه على جرمه المزعوم، وتقصيره الموهوم.

فقال لوالده: بكل صراحة ووقاحة: مكانك كي لا تراك زوجتي الأجنبية، فتحتقرني بعد احترام وأسقط من عينها بعد وئام، ثم أردف قائلا: سأقدم لك المساعدة إن ابتعدت عن العيادة وأعطيك ما تبتغي وزيادة، وهنا أسقط في يد الأب المسكين، وأصيب بخيبة أمل مريرة كل المرارة، وتحطمت جميع تطلعاته وضاعت جميع توقعاته لقد حدث له ما ليس في الحسبان، ووقع فيما لا يخطر على قلب إنسان، فأجاب ولده العاق على الفور. عليك لعنة الله والناس أجمعين.

وعليك غضب الله إلى يوم الدين، وعليك الشقاوة آبد الآبدين، وثم بصق في وجهه بصقة خففت من آلامه، وقال: أغنانا عنك رب العالمين، ورجع من فوره إلى زوجه كاسف البال مخيب الآمال، والحزن يفتت كبده، والخيبة قد ارتسمت على أساريره وظهرت بينة على جبينه.

ووصل إلى زوجته فأخبرها الخبر المشئوم وأعلمها بما حدث والدمع ينهمر من عينيه، ويتحدر على خديه، وكان حزن الوالدة أكبر وغمها أعظم فبكت بدموعها السخية، وفرجت عن غمها بالعبرات، وهكذا كانت نتيجة إرسال الولد إلى الغرب الكافر لقد جنى الوالدان ما زرعا، ونالا جزاء ما قدما.. ولكن لا بد للظالم من نهاية فماذا يا ترى حصل لوائل الابن العاق لوالديه؟

خرج وائل مع زوجته بالسيارة في يوم عطلة للنزهة والاستجمام، وعند منعطف شديد انفكأت السيارة وهوت نحو الوادي فمات هو وزوجته في الحال، ونزل به غضب الجليل المتعال، وانتقام العزيز الجبار ووصل الخبر إلى الوالدين فأيقنا بالله العليم الحكيم، الذي لا يرد دعوة المظلوم، وورثا ما ترك وائل من ثروة وعيادة وكانت قصته عبرة لكل ذي بال وعظة من أراد الاعتبار[1].

(1) وقائع أغرب من الخيال (قصص واقعية) لعلي العثمان (٤٩) بتصرف.

٤٥- انتقام الله لأوليائه

عن محمد بن سيرين قال: كنت أطوف بالكعبة وإذا رجل يقول: اللهم اغفر لي، وما أظن أن تغفر لي،فقلت: يا عبد الله ما سمعت أحدًا يقول ما تقول، قال: كنت أعطيت لله عهدًا إن قدرت أن ألطم وجه عثمان إلا لطمته، فلما قتل ووضع على سريره في البيت والناس يجيئون يصلون عليه، فدخلت كأني أصلي عليه فوجدت خلوة فرفعت الثوب عن وجهه ولحيته ولطمته فأيبس الله يدي اليمنى، فأصبحت كالخشبة لا تتحرك، قال ابن سيرين: فنظرت إلى يده فرأيتها يابسة، وعثمان الخليفة الثالث المظلوم فوّض أمره إلى ربه، فقضي الله أمره ونفذ قدره وجعل من ظلمه عبرة، والله عزيز ذو انتقام [١].

٤٦- أمن يجيب المضطر إذا دعاه

عن محمد بن داود الدينوري أنه قال: كنت أكاري على بغل لي من دمشق إلى بلد الزيداني، فركب معي ذات مرة رجل فمررنا في بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ مع هذه الطريق فإنها أقرب، فقلت: لا خيرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب فسلكناها حتى انتهينا إلى مكان وعر، وواد عميق وفيه قتلى كثير، فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل

(1) البداية والنهاية تاريخ البخاري، تاريخ الطبري.

سكينًا معه وقصدني، ففررت منه فتبعني فناشدته الله تعالى وقلت له: خذ البغل وما عليه فقال: هو لي وفي يدي ولا أشاورك فيه.

فقلت له: فماذا تريد؟ قال: أريد قتلك فخوفته الله وذكرته العقوبة فلم يقبل مني، فاستسلمت بين يديه، وقلت له: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين؟ قال: نعم عجل فيهما، وهكذا يعرف الصالحون كيف يتعاملون مع الرب ويحسنون الاتصال به، ويقدمون العمل الصالح ويلجأون إليه ويوقنون أن الاتصال البشري لا يجدي، فهم في مناجاة مع الرب وصاحب هذا العمل لا يخسر بل إن قتل فيكون قد ودع الدنيا بأفضل الأعمال، وإن بقي فيكون قد تسلح بسلاح قوي، وزادت علاقته وصلته بربه، ولو عرف الناس هذا الخير ما تركوه، ولقضى حاجاتهم في كل وقت وفي كل حين، ونسأل الله أن يلهمنا رشدنا وأن يقينا شر أنفسنا.

قال اللص للدينوري عجل علي فقام المكروب يصلي فارتج عليه القرآن ونسيه كله من هول الموقف، إذ السيف على رأسه واللص يقول: عجل قبل أن يكبر، وعند التكبير وبعد التكبير وفي كل لحظة فما تذكر من القرآن شيئا حتى الفاتحة يقول: فبقيت واقفًا متحيرًا وهو يقول: هيه أفرغ، فبينما أنا في هم وضيق، ألقى الله على لساني ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾ فقرأتها فإذا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمي بها الرجل، فما أخطأت فؤاده فخر صريعًا، فتعلقت بالفارس، وقلت بالله من أنت؟ قال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء. قل: فأخذت البغل

والحمار ورجعت سالما [(١)].

٤٧- اللهم اقلب القصر على أهله

عن وهب بن مُنَبه اليماني قال: إن جبارًا من الجبابرة بنى قصرًا وشيده وزخرفه وأنفق فيه الأموال الكثيرة، والجواهر النفيسة، وأراد أن يجعله قرة عينه، ظانًا أن حياته ستطول وملكه لا يزول، وما علم أن كل ما على الأرض فان، ولا يبقى إلا وجه الله، ومثل هذا القصر سيفنى ويخرب ولو بعد حين وصاحبه سيموت، بخلاف قصور الجنة فإنها لا تزول، بل هي لأهلها أبد الآبدين لا يزولون عنها ولا يتحولون، فلما أكمل بناءه أخذ يطوف به في كبر وعجب، وزهو وخيلاء فرأى قريبًا منه كوخًا صغيرًا من القش وعسب النخل وأوراق الشجر، فقال لمن هذا الكوخ؟ قالوا: لامرأة عجوز بنته لتسكن فيه وهي امرأة منقطعة ليس لها ولد ولا قرابة، وأرادت القرب من الملك لعلها تنال من عطائه، قال: اذهبوا واهدموه وأزيلوه من مكانه، فلا ينبغي أن يكون بجانب قصري حتى لا يشوه منظره، ولا ينتننا برائحته، فذهب الجنود إلى كوخ المرأة العجوز، ثم هدموه وأزالوه من مكانه، حتى أصبح أثرًا بعد حين، ورجعت العجوز إلى كوخها آخر النهار، وقد خرجت من الصباح لطلب العيش وقد تجد وقد لا تجد ومضت إلى كوخها فما رأته في مكانه، فقالت: ضللت الطريق بعد التعب والجهد، وبحثت عنه يمنة ويسرة فما وجدته، فقالت: لأحد الناس: هل تعلم أين الكوخ الذي كان في هذه الأماكن؟ قال: نعم، قالت: أين

(1) انظر كتابنا: "الفرج بعد الشدة" الجزء الأول (١٥٥).

هو؟ قال: أمر الملك بإزالته من مكانه؟ فنظرت إلى السماء ورفعت أكفها، وقالت: اللهم يا رب المستضعفين ويا مغيث المستغيثين ويا أرحم الراحمين لا يعجزك شيء في الأرض ولا في السماء، يا جبار السموات والأرض، ويا من يقول للشيء كن فيكون، اللهم إني غبت عن كوخي وذهبت لحاجتي وقد استودعتك ذاك الكوخ واعتدى عليه هذا الظالم، اللهم فاقلب قصره عليه، وخذه أخذًا عزيزًا، وانتصر لعبدك الضعيف، من الجبار العنيف فأمر الله جبريل أن يقلب القصر على الملك ومن فيه، فقلبه حتى سوى به الأرض وأزال الله الملك ومن معه، وخرب القصر وما فيه، وهكذا تكون نهاية الجبارين والمفسدين في الأرض نسأل الله العافية والسلامة[١] .

٤٨- سهام الليل

عن مسلم بن إبراهيم أن رجلا أتى حبيب الفارسي أبا محمد فقال له: يا حبيب اسمع مقالتي، قال اسمع. قال: إن لي عليك مبلغًا من المال قدره ثلاث مائة درهم لا بد من الوفاء بها، وإلا رفعت أمرك للقاضي؛ لأفضحك بين الناس، قال له حبيب: يا أخي من أين صارت هذه الدراهم لك علي؟ وما تعاملت معك بمعاملة ولا طلبت منك قرضًا، وإنما تريد أخذها ظلمًا وعدوانًا، قال: نعم، لي عليك ثلاث مائة درهم، أنذرك إلى يوم غد، فإن جئت بها وإلا رفعت أمرك، قال حبيب: اذهب عني إلى يوم غد أراجع نفسي، وأتفقد أوراقي فلعلني نسيت، فرجع إلى منزله وبحث في مثبتاته فلم يجد شيئًا،

(1) الكبائر للإمام الذهبي.

فلما كان من الليل توضأ وصلى في الثلث الأخير من الليل الذي يغفل عنه الملايين من المسلمين.

قام حبيب الفارسي آخر الليل ورفع يديه بعد صلاته وقال: اللهم إن كان صادقًا فأد إليه، وإن كان كاذبًا فابتليه في يده؛ ليعلم الناس صدقي ويعرفون كذبه، ولتكون درسًا عمليًا لغيره من الظلمة الذين يبهتون الناس ويظلمونهم بأخذ حقوقهم، فلما أصبح الصباح جيء بالرجل وقد حمل على الأعناق إذ أصيب بمرض الفالج الذي عطل نصف جسمه فنصف حي ونصف ميت، فقال لحبيب: أما عرفتني أنا الذي جئتك بالأمس وظلمتك بادعائي أن لي عندك ثلاث مائة درهم، ووالله ما كان لي عندك شيء، وإنما أردت إحراجك لتستحي من الناس فتعطيني فقال له: هل تعود مرة ثانية وتبتلي مسلمًا بمثل هذه البلوى؟ قال: لا فرفع يديه إلى السماء ثم دعا، وقال: اللهم إن كان صادقًا فألبسه العافية، فقام الرجل على الأرض يمشي وكأنه لم يكن به شيء [1].

٤٩- بشر القاتل بالقتل

كان ثلاثة رجال من الفلاحين يسيرون ليلا من قرية على نهر خازر متجهين نحو قرية في منطقة (عقرة)، وكان معهم بعض الدواب والماشية وبعض المال. وكان أهلهم في قريتهم الجبلية ينتظرون وصولهم إلى القرية في منتصف الليل، ولكنهم لم يصلوا إليها في الوقت المعين.

---

(1) مجابو الدعاء، "صفة الصفوة" لابن الجوزي.

وأصبح الصباح ولم يصل الرجال الثلاثة إلى القرية فأخبر أهلهم مختار تلك القرية، فركب حصانه ويمم شطر (عقرة)، وأخبر الشرطة هناك بالحادث. وامتطى مفوض الشرطة ومعه بعض رجاله في سيارة مسلحة، وساروا على طريق (عقرة) نهر الخارز المبلطة، وكانوا يتوقفون في القرى يسألون عن الرجال المفقودين، واستمر تفتيش الشرطة خمس ساعات، ثم عثروا على الجثث الثلاث للرجال الثلاثة، محروقة في جوف واد سحيق، ولم يجدوا أثرًا لدوابهم وماشيتهم ونقودهم.

وابتدأت الشرطة تطارد الجناة، وبعد أيام عثروا على بعض دوابهم وماشيتهم مع أخوين شقيقين، فألقوا القبض عليهما. وجرى التحقيق مع المتهمين وكانا معروفين بارتكاب جرائم القتل والسرقة والسلب، وبعد التحقيق الدقيق قدما إلى المحكمة العسكرية العرفية. كانت سوابق هذين المتهمين تشير إلى أنهما اللذان ارتكبا تلك الجريمة الشنعاء، وكان عثور الشرطة على دواب وماشية القتلى عند المتهمين دليلا ماديًا على ارتكابهما جريمة القتل.. وعندما وقعا في فخ الشرطة، تكاثر عليهما الشهود فاعترف أحدهما وهو الصغير بأنه ارتكب جريمة القتل بينما أصر الثاني على الإنكار.

وتداول قضاة المحكمة العسكرية العرفية أمر المتهمين فكان من رأي الأكثرية أن الأخ الصغير اعترف بعد أن رأى أن الأدلة على ارتكاب الجريمة متواترة لا سبيل إلى التخلص منها، لذلك أراد أن يتحمل العقاب وحده باعترافه ويخلص شقيقه من العقاب. وأخيرًا حكمت المحكمة على الشقيقين بالإعدام علنا شنقًا حتى الموت، ثم أرسلت بالدعوى إلى المراجع للتصديق.

كانت الجريمة بشعة حقًا وقد استفزت الرأي العام فكانت حديث المجالس، وقد وصلت إلى أسماع الناس في كل مكان، وكانت السلطة العليا تحرص على تطمين الناس، وإدخال الأمن إلى نفوسهم وتهدئة روعهم، فصدقت على الحكم بسرعة، وأقرت تنفيذ الحكم على الشقيقين علنا في ميدان عام مزدحم بالسكان.

ونشرت الصحف تصديق الحكم على الأخوين، وأذاعت محطة الإذاعة الخبر، وتسامع الناس بموعد تنفيذ الحكم بهما ومكانه فأقبلوا زرافات ووحدانًا؛ ليشهدوا مصرع الجانيين.

وفي عصر يوم من أيام أواخر الخريف من عام ١٩٥٢ كان المسئولون عن السجن يقيمون مشنقة خشبية في ساحة (باب الطوب) من مدينة الموصل، فانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم، وسمع من لم يسمع بخبر العزم على تنفيذ حكم الإعدام بالمجرمين صباح يوم غد، وسمعت بالخبر كما سمعه الناس. وعزمت على أن أشهد تنفيذ حكم الإعدام بهما، وحرصت ألا تفوتني هذه الفرصة، فقد كان وقع الجريمة في نفسي شديدًا، وكنت أسهر في ليلة مع بعض الضباط، وإذا بجندي من جنود الانضباط العسكري الشرطة العسكرية يسلمني رسالة رسمية من آمر موقع الموصل، فلما قرأت الرسالة علمت منها رغبة آمر الموقع أن أحضر إلى السجن ممثلا للجهة العسكرية لأبلغ المجرمين موعد تنفيذ حكم الإعدام ومكانه.

وفي السجن حين حضرت لتبليغ المجرمين، وجدت ممثلا عن المحكمة العسكرية العرفية، ومدير السجن، وطبيبًا وممثلاً عن المحاكم

المدنية، وممثلا عن الإدارة المحلية، ووجدت ملفًا ضخمًا للدعوى فيها أوراق بيضاء وحمراء وصفراء.. إلخ.

وكانت الأصول المتبعة أن يحضر ممثلون عن الجهات العسكرية والمحاكم والإدارة المحلية وطبيب عسكري، ليوقع كل واحد منهم على بعض تلك الأوراق بعد تبليغ المزمع تنفيذ حكم الإعدام بهما. والإجراءات الشكلية كانت تجري كالمعتاد.

وقد ذهب كل أولئك الممثلين ومعهم ملف الدعوى الضخم إلى زنزانة المجرمين، وهناك وجدوا شيخًا دينيًا ينتظرهم. وفتح السجان باب الزنزانة فإذا بالمجرمين شابين قويين مفتولي العضل متمالكين أعصابهما إلى أقصى الحدود. ودخلنا الزنزانة فاستقبلنا المجرمان بترحاب وأريحية كأنهما أصحاب الدار، وكأننا ضيوف عليهما كانا هاشين باشين هادئين غير متذمرين وكانا مؤدبين غاية الأدب، غير مكترثين بالأمر كله، وكانا (طبيعيين) حتى لقد تحرجنا من قراءة الحكم عليهما، وبقينا واجمين صامتين فترة من الزمن لا ندري كيف نبدأ الحديث.

وأخيرًا قرأنا عليهما الحكم، وأخبرناهما بأن الإعدام سينفذ بهما صباح غد علنا في ساحة (باب الطوب) .. فاستمعا إلى كل ذلك بشجاعة وصبر عجيبين. وسألناهما كالمعتاد.. ماذا تريدان؟ وهل لديكما ما تقولان؟ قالا: لا نريد شيئًا غير الشاي وعلبتين من السجائر. وقالا: نريد رحمة الله وغفرانه، ولا نريد من البشر شيئًا. وتضاحكا، وأخذ كل واحد منهما يشجع أخاه. قال الصغير للكبير: لقد ارتكبت أنا الجريمة فشاركتني أنت العقاب، وما كنت أريد لك

هذا المصير ظلمًا وعدوانًا.

وقال الكبير للصغير: لا تحزن.. ! صحيح أنني لم أشترك معك في قتل الرجال الثلاثة ولكنني قتلت غيرهم كثيرًا، فأنا اليوم أؤدي ما في عنقي من ديون. وسرد الأخ الصغير قصته كاملة على الحاضرين ، فكان مجمل ما قاله: إنني اليوم أقرب ما أكون إلى الله وسأكون غدًا ضيفه، إن أخي هذا لم يشترك معي في قتل الرجال الثلاثة ولم يشهد أخي قتلهم.

.. لقد كنت وحدي ومعي بندقيتي في حفرة بالقرب من قارعة الطريق، فلما مر بي الرجال الثلاثة مع دوابهم ومواشيهم انتهزتها فرصة سانحة وقررت ألا يفلت من يدي هذا الصيد الثمين. كنت أراهم ولا يرونني، فصوبت بندقيتي على رأس أحدهم، ثم أطلقت النار عليه فأرديته قتيلا. وارتبك الاثنان الآخران وامتدا على الأرض بالقرب من مكمني، فأطلقت النار على الثاني، فأرديته قتيلا، ونهض الثالث من مكانه وهرب متعثرًا، فعاجلته برصاصة استقرت في رأسه فمات على الفور.

وجمعت الدواب والماشية وفتشت جيوب القتلى، وسلبت ما كان عندهم من نقود، ثم قدت الدواب والماشية إلى بطن الوادي القريب من الطريق، ثم ربطتهم بالحبال، وعدت إلى الجثث في محاولة إبعادهم عن الطريق.

وسحبت الجثث إلى بطن الوادي، لأنني خفت أن يراهم عابر سبيل فيخبر أهل القرى بالحادث، فيتنادى سكانها فيلقوا القبض على

الدواب والماشية قبل أن أستطيع الفرار بها وتدبير أمرها.

وحيث استقرت الجثث في بطن الوادي، جمعت بعض الأخشاب والأعشاب اليابسة، ووضعتها فوق الجثث وأوقدت فيها النيران لإخفاء معالم الجريمة إلى الأبد.

وكان وادي الموت سحيقًا، وكانت النيران تلتهم الجثث فلا يراها أحد وكانت أقرب القرى إلى ذلك الوادي تبعد ثلاثة أميال. وسقت الدواب والمواشي إلى قريتي، فوصلت إليها في منتصف الليل فربطتها بالقرب من القرية، وذهبت إلى شقيقي هذا وأخبرته بالحادث فأسرع معي إلى مكان الدواب والماشية، فاستقناها بعيدًا في شعاب الجبال.

ولما علم رجال الشرطة بالحادث تعقبوا آثار الدماء فعثروا على بقايا الجثث ثم استطاعوا بقدرة من السماء أن يعثروا عليها في أعماق الوديان. وحين ألقي رجال الشرطة القبض علينا، كنا نائمين بالقرب من عين تحت شجرة ضخمة من أشجار البلوط، ولو كنا يقظين لما استطاعت أي قوة في الدنيا إلقاء القبض علينا.

وفي المحاكمة شهد الشهود بسماع طلقات نارية في ليلة الجريمة كما شهد أهل القرية بأنهم افتقدوني وشقيقي منذ تلك الليلة حتى وقت إلقاء القبض علينا، واقتنع قضاة المحكمة بأنني وشقيقي قتلنا الرجال الثلاثة، ولم يفد معهم اعترافي بالجريمة وإصرار شقيقي على الإنكار.

لقد ظنوا أنني أضحي بنفسي من أجل شقيقي وأنني أريد أن أنقذه من حبل المشنقة، وما علموا أن اعترافي هو الحق، وأن إنكاره هو الحق أيضًا..

وتنهد الأخ الأكبر، وقال: «إن ما قاله شقيقي حق، ولست في معرض الدفاع عن نفسي، لأنني أعلم أن وقت الدفاع قد فات، ولكنني أعترف بأنني قتلت غير هؤلاء الرجال في تلك الليلة، وكنت أقتل القتيل وأمشي في جنازته أشد ما أكون تظاهرًا بالحزن عليه، وقد ستر الله علي مرات كثيرة، ولكن الله يمهل ولا يهمل».

وغدًا أموت من أجل قتلاي الكثيرين لا من أجل القتلى الثلاثة، وإذا استطعت أن أهرب من عقاب البشر فإنني لم أستطع أن أهرب من عقاب الله.

وفي صباح اليوم التالي كانا شابان يتسابقان بخطوات ثابتة رصينة لصعود سلم المشنقة، وعلى السطح تحت حبلين يتمرجحان تعانق الأخوان وقال الصغير للكبير: «أطلب منك العفو» فأجابه الكبير: «إنك لم تقترف ذنبًا بحقي، فأنا المذنب بحق نفسي» وبعد لحظات كان جثتان هامدتان يتلاعب بهما الريح، وكانت تحتهما امرأة عجوز تنهل الدموع من عينيها غزيرة مدرارة.

وكان الذين شهدوا تنفيذ حكم الإعدام يزيدون على عشرة آلاف نسمة، رجالا ونساء وشيوخًا وأطفالا. ولم يكن بين الحاضرين من يشاركها أساها، ولم يكن بينهم من يشاطرها الحزن، ولا شماتة في الموت، ولكن الجريمة كانت أفظع من مقابلتها بغير الشماتة القاسية. وتحلق بعض الناس حولها يصبون لعناتهم على المصلوبين ولكن المرأة العجوز وكانت أم المجرمين الذين لا تزال تتأرجح جثتاهما بعبث الريح بعنف وقسوة تسربت من بين الحشود الشامتة الغاضبة، بعد أن ألقت

عليهم درسًا لا يزالون يذكرونه ولا إخال أنهم سينسونه في يوم من الأيام.

قالت الأم الثكلى: إنني لا أملك إلا الحزن عليهما فهما فلذة كبدي، ولكنني كنت متيقنة من زمن بعيد أن مصيرهما سيكون القتل بالرصاص أو الصلب على أعمدة المشانق.

وكم كنت أتمنى أن يموتا شهيدين دفاعًا عن بلادهما أو في أرض فلسطين، إذا لرفعت رأسي عاليًا بهما. لقد كنت أقول لهما: إن الموت مصير كل حي، ولكن شتان بين أن يموت المرء شريفًا، وبين أن يموت مجللا بالخزي والعار!!

لقد كنت أقول لهما: بشر القاتل بالقتل.

واليوم أرى مصرعهما بعيني فإذا كانت الحدود مطهرات، فليكونا عبرة لغيرهما من الناس.. ومضت المرأة العجوز هائمة على وجهها.. فهل من معتبر أم على قلوب أقفالها [١] .

٥٠- عاقبة الظلم

قال ابن البطريق في تاريخه: كان القاهر قد ارتكب أمورًا قبيحة لم يسمع بمثلها في الإسلام وذكر منها طرفًا طويلا، حكا أن رجلا قال: صليت في جامع المنصور ببغداد فإذا أنا بإنسان عليه جبة عنابية، وقد ذهب وجهها وبقي بعض قطن بطانتها وهو يقول: أيها الناس تصدقوا علي بالأمس كنت أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين،

(1) عدالة السماء (٢٢-٣١).

فسألت عنه فقيل لي: أنه القاهر بالله، وفي هذه الحكاية أعظم عبرة، نعوذ بالله من سخطه وزوال نعمه، وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وسبعة أيام، وكان أهوج طائشًا سفاكًا للدماء يدمن السكر، وكان له حربه يأخذها بيده فلا يضعها، حتى يقتل إنسانًا، ولولا وجود الحاجب سلامة لأهلك الناس [١] .

٥١- الله الكافي

عن محمد بن محمد بن عبد العزيز بن المهدي: قال أخبرني أبي، قال: سمعت ميمونة بنت ساقولة الواعظة، توفيت سنة (٣٦١هـ) تقول: آذانا جار لنا فصليت ركعتين، وقرأت من فاتحة كل سورة آية حتى ختمت القرآن وقلت: اللهم اكفنا أمره، ثم نمت ففتحت عيني فرأيت النجوم مصطفة فقرأت: ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ فلما كان السحر (يعني آخر الليل) قام ذلك الإنسان لينزل فزلقت قدمه فوقع فمات [٢] .

---

(1) حياة الحيوان للدميري.

(2) "المنتظم" لابن الجوزي (٢٢٦/٧) "البداية والنهاية" لابن كثير (٣٣٣/١١).

٥٢- أنكر الشاب حديث رسول الله فسقطت حية من السقف فتاب فذهبت

قال القاضي أبو الطيب: كنا يومًا بجامع المنصورة في حلقة، فجاء شاب خراساني فذكر حديث أبي هريرة في المطر فقال: الشاب: غير مقبول، فما استتم كلامه حتى سقطت من سقف المسجد حية، فنهض الناس هاربين وتبعت الحية ذلك الشاب من بينهم، فقيل له: تب تب فقال: تبت فذهبت، فلا ندري أين ذهبت[1].

فأين هؤلاء الذين يردون حديث رسول الله ﷺ ألا يخافون من الله.. ألا يعلمون إن السنة وحي من الله على رسوله ﷺ الذي قال «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**» وهو حديث صحيح. إن على المسلم التسليم بحديث رسول الله ﷺ وعدم رده والله المستعان.

٥٣- المظلوم منصور

اشتكى رجل إلى القائد الإسلامي المظفر محمود سبكتكين أن ابن أخته يهجم عليه في داره وعلى أهله في كل وقت، فيخرج صاحب المنزل ويخلو بأهله وقد حار في أمره وشكاه إلى كل أمير ووزير وصاحب شأن في الدولة، فما أنصفوه، فلما سمع محمود بذلك غضب غضبًا شديدًا، وقال للرجل: ويحك متى جاءك فائتني فأعلمني ولا تسمعن من أحد منعك الوصول إلي ولو جاءك في الليل، وأحضر

---

(1) "المنتظم" (١٥٤/٩) "البداية والنهاية" (١٦٩/١٢).

حرسه وحجابه وجنوده وقال لهم: لا تمنعوا هذا الرجل إذا جاءني في ليل أو نهار، واتركوه يدخل علي قالوا: سمعًا وطاعة فذهب الرجل مسرورًا داعيًا للملك بحسن تجاوبه وشدة غيرته، ومضى اليوم الأول وما جاءه الفاجر، ومضى اليوم الثاني ولما جاء الليل وإذا بالفاجر قد دخل بعد العشاء، فخرج الرجل إلى الملك ليخبره فلما وصل لمنزله رده الحراس قال: ألم يقل لكم لا تمنعوني قالوا، نعم، فأذنوا له فدخل وهو نائم فأيقظه فقام معه وحده، ومضى معه إلى منزله، فلما دخل المنزل نظر للغلام مع المرأة في فراش واحد وعندهما شمعة تتقد، فتقدم الملك فأطفأ السراج ثم احتز رأس الغلام، وقال للرجل: ويحك ألحقني بشربة ماء، فأتاه بالماء فشرب ثم انطلق الملك ليذهب فقال له الرجل: بالله لم أطفأت الشمعة قال: ويحك إنه ابن أختي وإني كرهت أن أشاهده حالة الذبح فأرحمه فأردت ألا تأخذني في الحق لومة لائم، فقال: ولم طلبت الماء سريعًا قال: إني آليت على نفسي منذ أخبرتني أنه يؤذيك أن لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أنصرك وأقوم بحقك، فكنت عطشانًا هذه الأيام كلها، حتى كان ما كان مما رأيت فدعا له الرجل وانصرف الملك راجعًا إلى منزلة ولم يشعر بذلك أحد[1].

٥٤- وماتت الصداقة تحت الأنقاض

قصة واقعية يرويها الشيخ محمد بن ناصر العبودي، فيها القصاص العادل من الرجل الذي خان صديقه، فكان سببًا لإنقاذ الأسرة من الموت تحت أنقاض غرفة نومهما وطفلهما الرضيع، أنها إرادة الله تعالى

(1) انظر "البداية والنهاية" للحافظ ابن كثير في ترجمته.

ومشيئته التي جعلت اللص يفكر في سرقة صديقه، فكان عقابه تحت الأنقاض.

يقول الأستاذ العبودي هذه قصة سمعتها من والدي رحمه الله ملخصها: أن رجلا كان له صديق وكان صديقه فقيرًا أما هو فكان يحتفظ ببعض النقود القليلة، والنقود عزيزة آنذاك في نجد، وفكر ذلك الصديق الفقير أن يسرق نقود الرجل؛ لأنه هو وحده الذي يعرف أين يضع ذلك الرجل نقوده، أما غيره فلا يعرف ذلك؛ لأن الرجل كان حازمًا يقظًا إلا مع صديقه هذا، ولم يقع في خاطره أن صديقه سوف تزين له نفسه أن يخون صداقته ويستلب ما جمعه في ماضي حياته وجميع ما حازه في زهرة عمره.

أما ذلك الصديق الفقير فقد سولت له نفسه أنه يستطيع أن يفعل كل شيء بدون أن تتأثر صداقتهما بشيء، فهو لن ينتهب النقود انتهابًا ولكنه سوف يختلسها ومن أين يعلم صاحب النقود أن سارق النقود هو صديقه؟.

وجعل ينتظر الفرص وكانت قليلة وذات ليلة من الليالي المطيرة كان البرد شديدًا والمطر يهطل والوحل كثير وكانت ليلة مطيرة بعد يوم مطير، كان الصديق الفقير يعلم أن ذلك الرجل يضع نقوده القليلة في حفرة صغيرة تحت فراشه الذي ينام عليه هو وزوجه، فقد خبره هو نفسه بذلك، فماذا يصنع إذا لكي يستطيع أن يبعد الرجل وامرأته من الفراش، ولكن أنى له ذلك إنهما لا يقومان وهما يعلمان أن عماد حياتهما تحته.

وفكر طويلا وألح عليه البرد وغسله المطر وملّ الجلوس بعد أن طال جلوسه مترقبًا حذرًا وصاحب النقود وزوجه ينعمان بنوم لذيذ، والبيت ليس فيه غيرهما إلا ابنهما الوحيد الرضيع وقد اضجعاه بينهما، ولمعت في رأسه فكرة سرعان ما نفذها. لقد ذهب بخفة وحذر يحبو على يديه تارة ويركع أخرى، وبين الحين والآخر يلصق بالأرض أذنه لتيقن هل أنفاسهما وأنفاس طفلهما عادية كما تكون أنفاس النائم أم أنها أنفاس المتناوم.

وفي غمرة الخوف خفق قلبه بالأمل، لقد كانوا نيامًا حقًا الجميع نيام الزوجان والطفل. والتقط الطفل من فراشه في سكون وبدون أن يشعر الطفل بذلك أو يشعر الأبوان، وخرج به إلى فناء الدار المكشوف. رجع مرة ثانية بأسرع ما يكون إلى باب الغرفة وجلس على أصابع رجليه في الظلام منتظرًا ما يحدث، لقد رتب في فكره كل شيء، لقد فرض أن الطفل بعد أن يذهب عنه ويحركه بيده سوف يصيح وسوف يحمله المطر على زيادة الصياح وعلى الصراخ وسوف ينتبه الأبوان بصياح طفلهما، وسوف يفزعان وسوف ينسيهما الفزع والدهشة كل شيء حتى نقودهما المدفونة تحت الفراش، وعند ذلك وحالما يخرجان من الغرفة يدخل هو ويلتقط النقود ويهرب.

وتحقق ما قد جعل الطفل يصرخ صراخًا عاليًا وانتبهت الأم وأخذها العجب وجعلت تتساءل: من يكون ذلك الطفل الذي وضع في فناء بيتها هل هي في حلم أم في يقظة؟ وندت عنها صرخة قفز لها زوجها من فراشه مذعورًا، لقد أرادت أن ترضع ابنها ولكنها لم تجده في فراشه وصاحت بزوجها إنه هو إنه ابني يصيح في الخارج، لا

أستطيع الخروج وحدي أسرع، وخرجا معا إلى مصدر صوت الطفل في الظلام، وغادرت خطاهما الغرفة ليمرق ذلك اللص داخلا فيها قاصدًا مكان النقود.

وأسرع فانتشل النقود، ولكن.. ولكن، لم تكد تستقر في يده حتى حدث ما لم يكن له في حسبان.

لقد رتب كل شيء، ولقد أخذ لكل شيء عدته إلا لذلك الشيء ترى ما هو ذلك الشيء؟

هو أن الغرفة أطبقت عليه.. لقد انهارت عليه، لأنها مبنية باللبن ومسقفة بأعواد الأثل، ونفذ الماء إلى باطن الجدار فاختمر الطين وانهارت. سمع الزوجان بعد أن ضما طفلهما إلى صدر كل منهما مرات بالتناوب، صوت الغرفة وهي تنهار.. وجعلا يضحكان ويتعجبان ويحمدان الله تعالى الذي أنقذهما وأنقذ طفلهما من الموت.. ماذا يحدث لو أنها انهارت عليهما؟ إن الطفل الرضيع سوف يموت لو وضع على وجهه قطعة من قماش فما بالك بالمنزل ينهار عليه. ولكن لنرجع إلى صاحبهما اللص هل مات؟ إن ذلك لأهون من أن يلقى صديقه، ويعرف أنه هو الذي عرض ولده للخطر وأراد سرقة نقوده.. إنه لم يمت، ولكنه بين الموت والحياة.

وسمع الزوجان أنينًا منبعثًا من الغرفة وانزعجا وتشجع الرجل وقصد مصدر الصوت بين الطين والأعواد وسأله من أنت؟ وبعد مدة استطاع أن يعرفه ولكنه لم يستطع أن يزيح عنه الأنقاض؛ لأن المطر جعل يشتد ولأن جهده يقصر عن ذلك، ولكنه وعهده بذلك في

الصباح [1] .

٥٥- احذر الظلم

عن جعفر بن سليمان قال: سمعت ثابت البناني يقول: أخذ عبيد الله بن زياد ابن أخ لصفوان بن محرز فحبسه في السجن وسلسله بالقيود وآذاه أشد الإيذاء، وكيف لا يؤذيه ابن زياد، وقد آذى ابن بنت رسول الله ﷺ الحسين بن علي وقتله ومنعه الماء ومنعه العودة لمكة، ومنعه الذهاب ليزيد، وقتل أعوانه ومن معه وآذى أهله وتجرأ على الله، والله عزيز ذو انتقام، وما علم ابن مرجانة أن القوة لله وأن الأمر لله من قبل ومن بعد.

ولم يترك صفوان بن محرز شريفًا بالبصرة ليشفع له شفاعة مشروعة عند ابن زياد، إلا أن ذلك لم يجد طريقًا لقسوة قلب ابن زياد وحنقه على الصالحين. ولضراوة الحقد التي في قلبه أراد أن يفزعها بالسخط على هؤلاء المساكين، فلما سدت الأبواب في وجه صفوان من قبل الناس وبذل السبب المشروع وخير الناس أنفعهم للناس، طرق باب الله وهو الباب الذي يجب أن لا نغفل عنه وأن نتصل به على الدوام، وأن نعلم يقينًا وفاء الله بوعده إذا وفينا بوعدنا له، بات صفوان في مصلاه حزينًا وبينما هو قاعد يغالبه النعاس ويمنعه الحزن والأسى إذا آت قد أتاه في منامه فقال: يا صفوان قم فاطلب حاجتك من وجهها. قال: فانتبه فزعًا فقام فتوضأ، ثم صلى، ثم دعا على الظالم

(1) انظر كتاب: "سوانح أدبية" للشيخ محمد العبودي، وانظر مجلة "اقرأ" العدد (٩٩١).

ابن زياد الذي ظلم ابن أخيه وظلم غيره، فسارت تلك الدعوة ووصلت لربها الذي سمعها منذ نطقها قائلها وعلمها قبل قولها وأجابها الرب تعالى إذ سلط الله الأرق والسهر على ابن زياد، وكلما أراد النوم ما وجده وكان يتقلب على فراشه كالعيرة، ثم قال علي بابن أخي صفوان بن محرز.

فجاء الحرس وجيء بالنيران ففتحت تلك الأبواب الحديد في جوف الليل فقيل أين تريدون؟ قالوا: نريد ابن أخي صفوان اخرجوه فإن الأمير منع النوم منذ الليلة، فأخرج من محبسه وفكت قيوده فكلمه، ثم قال له: انطلق بلا كفيل ولا شيء، فما شعر صفوان إلا والباب يطرق، فلما فتح إذا به ابن أخيه قال: ما خبرك فخبره بالقصة، فحمد الله وأثنى عليه وازداد من شكره [١] .

٥٦- قتل أبيه فلم يمتّع بالحياة

عن يحيي بن علي المنجم قال: جلس المنتصر[٢] ، في مجلس كان أمر أن يفرش له بفرش ديباج مثقل بالذهب، وكان في بعض البسط دائرة كبيرة فيها مثال فرس وعليه راكب، وعلى رأسه تاج، وحول الدائرة كتاب بالفارسية فلما جلس المنتصر وجلس الندماء وقف على

---

(1) انظر "مجابو الدعاء" لابن أبي الدنيا، "حلية الأولياء" لأبي نعيم، "صفة الصفوة" لابن الجوزي.

(2) محمد أمير المؤمنين المنتصر بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله ابن هارون الرشيد، استخلف وهو ابن أربع وعشرين سنة وتوفي سنة ٢٤٨ هـ وكانت خلافته ستة أشهر تاريخ بغداد (٢/١١٩-١٢٠).

رأسه وجوه الموالي والقواد، فنظر إلى تلك الدائرة وإلى الكتاب الذي حولها فقال (لبغا) أيش هذا الكتاب؟

فقال: لا أعلم سيدي، فسأل من حضر من الندماء فلم يحسن أحد أن يقرأه، فالتفت إلى وصيف، وقال: أحضر لي من يقرأ هذا الكتاب فقطب، فقال له المنتصر: ما هو؟ فقال: يا أمير المؤمنين بعض حماقات الفرس، قال: أخبرني ما هو؟ قال: يا أمير المؤمنين ليس له معنى، فألح عليه وغضب، قال يقول: أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز، قتلت أبي فلم أمتع بالملك إلا ستة أشهر، فتغير وجه المنتصر وقام من مجلسه إلى النساء، فلم يبق المنتصر بعد قراءتها إلا ستة أشهر فقط [1] ثم مات.

أيها المسلم.. إن الدنيا لا تستحق ذلك الاهتمام. إنها جيفة قذرة.. إنها ساعة فاجعلها طاعة.. من عرف الدنيا وأحوال أهلها.. تعجب.. وازداد عجبًا فكم من حقير عظمته.. وكم من فاسق أظهرته.. وكم من مؤمن ضعيف يهان في كل لحظة وثانية.. حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قررا.. اللهم أمتنا على الكتاب والسنة.. وانظر مقدمة كتابي: الإعلام فيما ورد في بر الوالدين وصلة الأرحام.

٥٧- إلى العابثين بالأعراض

---

(1) تاريخ بغداد (٢/١٢٠، ١٢١).

أعطى قارون امرأة زانية مالا كثيرًا على أن تقول لموسى في ملأ بني إسرائيل إنك زنيت بي، ثم طلب قارون من موسى أن يخرج للناس حتى يعظهم فلبى موسى الطلب وجاءوا من كل مكان حتى اجتمع جمع غفير فخطبهم موسى، ثم قام قارون، وقال: يا موسى أرأيت من سرق ماذا تفعلون به؟ قال: نقطع يده، قال: ومن زنى؟ قال: يرجم إن كان محصنًا، ويجلد إن كان غير محصن، قال: حتى وإن كنت أنت، قال: أعوذ بالله أن أفعل، والحد يقام على الجميع حتى ولو كنت أنا، قال قارون للمرأة قومي فما استطاعت أن تقوم وأصابتها رجفة ورعدة شديدة، وانهدت قواها، واقشعر جلدها، ووجل قلبها وأصابها الخور والضعف، وقالت: يا موسى إن قارون أعطاني مبلغًا كبيرًا من المال مقابل أن أقذفك بنفسك، فغضب موسى وقال: أسألك بالذي أنزل التوراة أصدق قارون فيما يقول؟ قالت: أشهد أنك بريء وأنك رسول الله، فوثب ساجدًا بين يدي ربه يدعو على من ظلمه، فأوحي الله تعالى إليه أن ارفع رأسك فقد طوعت الأرض لك، فقال موسى للأرض: خذيهم فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم أخذتهم إلى ركبهم وهكذا حتى ابتلعتهم وما أبقت منهم أحدًا، قال قتادة السدوسي: يخسف الله بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة، وروي عن ابن عباس أنه خسف بهم إلى الأرض السابعة.

وقد ورد أن قارون ومن معه لما خسف الله بهم أخذوا يدعون موسى أو ينادونه تُبنا تُبنا لا نعود وهو لا ينظر إليهم، فأوحى الله تعالى إلى موسى يقول لك عبادي: يا موسى فلا ترحمهم أما لو إياي

دعوا لوجدوني قريبًا مجيبًا، والله أعلم بصحة ذلك [١] .

وذهب قارون جزاء ظلمه وحسده وبغية وخسف الله به الأرض، وجعله عبرة لكل الناس على مر الدهر، وذهب موسى بالعز في الدنيا والعز في الآخرة وعاش سعيدًا ومات حميدًا.

هل ينظر أهل القذف للأعراض البريئة إلى عاقبة الظلم فيمسكون ألسنتهم ويضبطون جوارحهم، ويراقبون ربهم ويعلمون أنهم سوف يبتلون بمن ينال من عرضهم.. وكما تدين تدان.. والحياة سلف ودين. اللهم إنا نعوذ بك من الظلم والظلمة ومن الفسق والفسقة ومن دعاة السوء.. والمتظاهرين بالدين..

٥٨- احذر عقاب الله..!

حكي أن رجلاً لم يولد له ولد، فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم فنهته زوجته عن ذلك، وقالت: يأخذك الله بذلك. فقال: لو أخذ لفعل في يوم كذا، وصار يعدد أفعاله لها. فقالت له: إن صاعك لم يمتلئ ولو امتلأ أخذك. قال فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلهما وطرد الجرو، قال فطلبهما أبوهما فلم يجدهما فانطلق إلى نبي لهم فأخبره بذلك فقال: ألهما لعبة كان يلعبان بها؟ قال جر وكلب. قال ائتني به فأتاه به فجعل خاتمة بين عينيه، ثم قال اذهب خلفه فأي بيت دخله ادخل معه فإن ولديك فيه. قال: فجعل الجر يجوز الدروب، والحارات حتى

(1) "تاريخ الأمم والملوك"، للإمام الطبري، و"البداية والنهاية" للحافظ ابن كثير.

دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما وهو قائم يحفر لهما مكانا يدفنهما فيه، فأمسكوه وأتوا به لنبيهم فأمر بصلبه، فلما رأته زوجته على الخشبة، قالت: ألم أحذرك هذا اليوم. وتقول ما تقول! الآن امتلأ صاعك.

٥٩- عقوق يعقبه شلل..!

حدث هذا ليس في زمن غابر وليس في بلاد الواق الواق..!!

بل حصل هذا في بلادنا.. وفي مدينة الدمام.. ووقع على شاب سعودي عاق..!

والواقعة نشرتها جريدة المدينة يقول الخبر:

لم يكن الشاب ح.م البالغ من العمر ٢٤ عامًا يتخيل أن يستيقظ من نومه ذات يوم فيجد يده اليمنى وقد شلت. ولكن هذا ما حدث لهذا الشاب الشقي وحيد والديه.. والذي اعتاد أن يوجه سبابه وشتائمه إلى والديه دون مراعاة لما حث عليه الدين الحنيف من طاعة الوالدين واحترامهما. وبعد وفاة والده. ازدادت قسوته على أمه لمجرد إنها كانت تنصحه بالابتعاد عن رفاق السوء الذين كانوا السبب في تخلفه الدراسي وانحرافه.

فذات مرة هددته أمه بأحد أخواله الذي كان يخشاه في السابق، لكنه سب خاله وتحدى أن يفعل له شيئًا وزادت ثورته وقذف أمه بالحذاء فأصابها في ظهرها.

أخذت الأم تبكي حظها في هذا الولد العاق، ودعت عليه

وكانت المفاجأة في اليوم التالي.. عندما استيقظ الشاب واكتشف أنه لا يستطيع أن يحرك يده اليمنى!

أغلق الشاب باب غرفته على نفسه وراح يبكي ليل نهار على ما اقترفه في حق والديه، ورق قلب الأم ولم تعد تفعل شيئًا غير الدعاء لله أن يشفي فلذة كبدها!!

ولا أحسب أن هذه القصة تحتاج إلى كثير من التعليق فهي أكبر من كل تعليق.. ولكنني أرسلها إلى كل شاب يعق والديه أو يقول لهما أف أو ينهرهما، أقول له: لتخش عقاب الله في الدنيا قبل الآخرة.. وكفى[١].

٦٠- دعا الله عليهم فاستجاب الله دعائه

الإمام البخاري رحمه الله.. من منا لا يعرفه .. إنه شمس الدنيا.. إنه جبل الحفظ.. إنه من دافع عن السنة النبوية ومع ذلك لم يسلم من الحاقدين والحاسدين. انظر في هذه القصة ما حصل له.. عن أبي بكر بن أبي عمرو الحافظ قال: كان سبب مفارقة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري البلد- يعني بخاري- أن خالد ابن أحمد الذهلي الأمير خليفة الظاهرية ببخارى سأل: أن يحضر منزله فيقرأ الجامع والتاريخ على أولاده، فامتنع أبو عبد الله عن الحضور عنده، فراسله أن يعقد له مجلسًا لأولاده لا يحضره غيرهم فامتنع عن ذلك أيضًا. وقال لا يسعني أن أخص بالسماع قومًا دون قوم، فاستعان خالد بن

---

(1) انظر جريدة "الجزيرة" العدد (٨٣١٩).

أحمد بحريث ابن أبي الورقاء وغيره من أهل العلم ببخارى عليه، حتى تكلموا في مذهبه ونفاه عن البلد- فدعا عليهم أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، فقال: اللهم أرهم ما قصدوني به في أنفسهم وأولادهم وأهاليهم. فأما خالد فلم يأت عليه إلا أقل من شهر حتى ورد أمر الظاهرية بأن ينادي عليه، فنودي عليه وهو على أتان وأشخص على إسحاق ثم صار عاقبة أمره ما قد اشتهر وشاع، وأما حريث بن أبي الورقاء، فإنه ابتلي بأهله فرأى فيها ما يجل عن الوصف. وأما فلان أحد القوم- وسماه فإنه ابتلي بأولاده، وأراه الله فيهم البلايا [١] .

٦١- عند الله يجتمع الخصوم

روي أن الحجاج حبس رجلا في حبسه ظلمًا فكتب إليه رقعة فيها، قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعيمك أيام، والموعد القيامة، والسجن جهنم، والحكم لا يحتاج إلى بينة وكتب في آخرها:

ستعلم يا نؤوم إذا التقينا	غدا عند الإله من الظلوم
أما والله إن الظلم لؤم	وما زال الظلوم هو الملوم
سينقطع التلذذ عن أناس	أداموا وينقطع النعيم
إلى ديان يوم الدين نمضي	وعند الله تجتمع الخصوم

٦٢- اليمين على من أنكر

وقف أمام القاضي، فأنكر أنه مدين بمبلغ خمس مائة وألف من

(1) "تاريخ بغداد" (٢/٣٤).

الدنانير لورثة الحاج إبراهيم محمد، فطلب منه القاضي أن يقسم بالقرآن الكريم، بأن الحاج إبراهيم لم يدفع له في يوم من الأيام هذا المبلغ، وأنه ليس مدينًا له، فأقسم ثم غادر المحكمة بعد أن أفرج عنه القاضي ونطق بالحكم عليه بالبراءة.

ولم يكد يتخطى عتبة المحكمة إلا وسقط على الأرض ميتًا ذلك ما حدث في عام ١٩٥٤ في مدينة ما من مدن العراق، ولكن القصة لا تبدأ هكذا فلنذكر القصة كما حدثت.

كان الحاج إبراهيم محمد من التجار الكبار، وكان لا يرد طلب طالب، ولا يخيب رجاء قاصد. وفي يوم من الأيام قصده السيد (..) في مكتبه الكائن في (خان الشط) المطل على نهر دجلة وعرض عليه أمره.

وقال السيد (...) للحاج إبراهيم: «إنني جارك، وقد كان والدي من أصدقائك المقربين، وحين حضرته الوفاة أوصاني أن التجئ إليك إذا حزبني أمر أو ضايقتني أعباء الحياة».

إن الزروع في هذه السنة كما تعلم لم تعط ثمن بذرها، فقد اضمحلت الأرض وانقطع المطر وسال الحال فلا أعرف كيف أدبر حالي.

وكنت قد استقرضت مالاً من المصرف، فلا بد لي من دفع ديوني له وإلا افتضح أمري وشمت بي الأعداء.

واليوم أتيتك لتقرضني خمس مائة وألفًا من الدنانير، لأدفع الدين الذي في عنقي لمصرف الرافدين، واشتري الدار وأدبر حالي، وموعدي

معك لوفاء دينك علي في موسم حصاد الحنطة والشعير في العام المقبل.

وقام الحاج إبراهيم إلى خزانة نقوده في مكتبه، وأخرج منها المبلغ ودفعه إلى السيد (..) وسجل المبلغ في دفتر الحسابات.

وأبدى المدين شكره وظهر امتنانه وأصر على كتابة سفتجة[١] ولكن الحاج إبراهيم قال له: «لا شكر على واجب وبيني وبينك الله، فهو نعم الوكيل ونعم الشهيد».

وبعد سنة تقريبًا من هذا الحادث مات الحاج إبراهيم بالسكتة القلبية، وترك زوجة وأربعة أطفال أكبرهم في الثالثة عشرة من عمره.

وراجعت زوج الرجل دفاتر زوجها وسجلاته التجارية وأعانها على ذلك أخوها المحامي، فعرفت ما في بطون أوراقه بتفصيلات مال زوجها من ديون على الناس..

ومرت الأيام والشهور على موت زوجها، فبعثت إلى السيد (...) تطالبه بما لزوجها عليه من دين، ولكن السيد (...) أنكر أنه مدين بشيء لزوجها، وزعم أنه دفع ما كان عليه من دين إلى زوجها، وربما نسي زوجها أن يرقم قيد الدين في سجلاته.

وتسامع الناس بالحادث، وكان بعضهم قد سمع بأن الحاج إبراهيم كان قد أقرض السيد (..) بعض المال، فزعم للناس أنه وفي للحاج إبراهيم دينه، ولو كان مشغول الذمة لعثر ورثة الحاج إبراهيم على

---

(1) كمبيالة.

سند الدين في مخالفته.

وانقسم الناس في المحلة من الجيران إلى قسمين: قسم يؤيد ورثة الحاج إبراهيم، ويذكرون أنه يقرض النقود حسبة لله بدون مستند أو سفتجة (كمبيالة)، وقسم يؤيدون السيد (...) بأنه ليس من المعقول أن يدفع الحاج إبراهيم مبلغًا من النقود للسيد (...) بدون مستند أو سفتجة.

والتجأت زوج الحاج إبراهيم إلى بعض أهل الخير من المحلة؛ ليحملوا السيد (...) على تبديل موقفه ولكنه أعرض وأصر وتمادى واستكبر كأنه صخرة عاتية من صخور الجبال.

وكما أن آخر الدواء الكي، فإن آخر مطاف المتنازعين المحاكم، ووكلت زوج الحاج إبراهيم أخاها المحامي ليعرض شكواها على المحاكم، وجاء يوم المحاكمة وحضر المتهم إلى ساحة المحكمة، وأترك الكلام الآن للحاكم الأستاذ (...) الذي قص علي تفصيلات المحاكمة فكان مما قاله: «كنت في قرارة نفسي مقتنعًا بأن السيد (..) مدين للحاج إبراهيم بهذا المبلغ، ولكن لم يكن هنالك دليل مادي غير تسجيل هذا المبلغ بخط الحاج إبراهيم في سجل ديونه على الناس، وهذا الدليل وحده لا يكفي لإثبات التهمة، ولم ينكر السيد (...) بأنه استقرض هذا المبلغ من الحاج إبراهيم، لكنه أفاد بأنه أعاد المبلغ إلى صاحبه بعد سنة من استقراضه».

وشهد أحد الرجال بأنه سمع السيد (..) يثني على الحاج إبراهيم، ويذكر أنه انتشله من وهدة الفقر والحرمان بإقراضه بعض المال حسبة

لله، ولكن الشاهد لم يتذكر مقدار المبلغ ولا وقت سماعه حديث السيد (...).

كانت القضية كلها كريشة في مهب الريح، فحاولت أن أجر المتهم إلى الاعتراف بالدين، لكنه كان يفلت من الاستجواب.

إن المحاكم في مثل هذه القضية، تطبق المبدأ القضائي البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر.

وقالت للمتهم: هل تقسم بالقرآن الكريم بأنك لست مدينًا للحاج إبراهيم بهذا المبلغ ولا بغيره، وأنك دفعت ما كان له عليك من دين؟ وقال المتهم: أقسم.. ثم أقسم ونطقت بالحكم: البراءة..

وخرج المتهم مرفوع الرأس شامخًا من المحكمة وكان ذا هامة وقامة صحيح البدن قوي البنية سليمًا معافى وهو في ريعان الشباب. وما كاد يغادر المحكمة ومعه المستمعون إلا وسمعت ضجة خارج المحكمة، فهرعت لأتبين جلية الأمر.. وصعقت لأنني وجدت المتهم الذي كان ماثلا أمامي قبل لحظات معدودات في أوج صحته وعنفوان شبابه، وكمال رجولته ممتدًا على الأرض جاحظ العينين مفتوح الفم أصفر الوجه، كأنه شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

وهتف الناس من حوله: لقد مات. كانت زوج الحاج إبراهيم تسكن في دار قريبة من داري، وكانت لها صلة قربي بأهلي.

واشتقت أن أسمع القصة منها، فسألتها عن الخبر، فكان مما قالته: «كان المرحوم الحاج إبراهيم بارًا بجيرانه خاصة وبالناس عامة، وكان يقرض المحتاجين، ويكتفي بتسجيل قرضه في سجل خاص»

وكنت ألومه على ذلك فيقول: المال مال الله، وقد كنت فقيرًا فأغناني، وكنت يتيمًا فآواني، فلن أقهر يتيمًا، ولن أنهر سائلاً.

وكان يختم كلامه كل مرة بقوله: يا ليت لي في كل قبر دينًا.

وشهدت محاكمة السيد وأصغيت إلى أقواله، وكنت لا أشك بأن الله يسمع ويرى. وحكم القاضي بالبراءة بعد أن أقسم المتهم باليمين، فلما أقسم اليمين اقشعر بدني، فقد كنت مؤمنة بأنه كاذب وأنه اجترأ على كتاب الله عز وجل.

وقلت أخاطب الله سبحانه وتعالى: إنك تعلم السر وأخفى، وإنك علام الغيوب فإن السيد (..) كاذبًا في قسمه فاجعله عبرة للناس.. يا قوي يا جبار.. وخرج المتهم من المحكمة وأنا أنظر إليه، ولكنه سقط ميتًا على بعد خطوات من باب المحكمة.

لقد نجا السيد (...) من حكم الأرض، ولكنه لم ينج من حاكم الأرض والسموات ولم يكن الصراع يدور بينه وبين ورثة الحاج إبراهيم، بل كان الصراع بينه وبين جبار السموات والأرض..

وفي ليلة من ليالي الشتاء العاتية حين كان البرد قاسيًا والمطر مدرارًا وحين كان الناس يأوون إلى مضاجعهم لا يغادرونها ناعمين بالدفء والراحة في ذلك الوقت في ساعة متأخرة من الليل البهيم، كان جرس دار إبراهيم يرن قويًا متواصلا..

وكان على الباب امرأة متشحة بالسواد يرافقها طفل في السادسة من عمره.

وفتحت زوج الحاج إبراهيم الباب لترى من الطارق فوجدت زوج السيد (...) ومعها ولدها الوحيد.

وقالت زوج السيد (...) للسيدة زوج الحاج إبراهيم: لقد أنكر زوجي بأنه مدين للحاج إبراهيم ولكنني كنت أعرف بأنه كاذب. ورجوت أن يسدد ما عليه من دين وألححت في رجائي وألحفت، ولكنه ركب رأسه ومضى في غيه. لقد دفع زوجي ثمن كذبه غاليًا، وهذا هو المبلغ الذي كان مدينًا به لزوجك.

وألقت بكيس فيه خمس مائة وألف من الدنانير، ثم عادت مسرعة أدراجها إلى دارها، ومن وراءها ابنها. قبل أن تسمع كلمة من زوج الحاج إبراهيم.

وبقيت زوج الحاج إبراهيم على باب دارها تنظر شبحين يختبأن حتى لفهما الظلام.

وآوت إلى فراشها، وهي تستمع إلى هطول المطر وعويل الرياح[1]. الله لا ينسى النملة تحت صخرة ملساء سوداء.. فكيف ينساك أيها الإنسان.. أما قرأت قوله تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا**﴾ وقوله ﷺ في الحديث الصحيح «**إن الله أوحي إلي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها**». إن الثقة بالله والإيمان به وتوحيده والتوكل عليه وحسن الظن به هو الطريق للخير والسعادة

(1) "عدالة السماء" (بتصرف).

٦٣- جزاء من يؤذي الصالحين

عن العباس بن هشام بن محمد الكوفي عن أبيه عن جده قال: كان رجل من بني أبان بن دارم يقال له: زرعة شهد قتل الحسين فرمي الحسين بسهم، فأصاب حنكه فجعل يتلقى الدم ويقول: هكذا إلى السماء فترميه به أي العطش الذي أصاب الحسين إذ دعا رضي الله عنه بماء للشرب قبل قتله فأبوا أن يعطوه وتركوه يصيح عطشان فلا يسقوه فدعا ربه وقال: اللهم من حال بيني وبين الماء فظمئه، اللهم ظمئه، فاستجاب الله دعوته.

فلما حضرت الوفاة ذلك الرجل الذي منع الحسين بن علي شهيد كربلاء من الماء، سلط الله عليه العطش الذي لا ينطفئ ولو شرب مياه الدنيا كلها، إذ كان يصبح من الحرارة الشديدة في بطنه من أثر العطش، ويصيح من أثر البرد الشديد في ظهره، فكانوا يضعون المراوح والثلج بين يديه لتطفئ الحرارة والعطش والكانون من خلفه وهو يقول: اسقوني أهلكني العطش، فيؤتى بعس عظيم فيه السويق أو الماء واللبن لو شربه خمسة لكفاهم، قال فيشربه ثم يعود فيقول: اسقوني أهلكني العطش، قال: فانقدت بطنه كانقداد البعير[1]. وهكذا الجزاء من جنس العمل.. وصدق الله القائل في الحديث القدسي: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب رواه البخاري. فما بالك إذا كان هذا المظلوم ريحانة رسول الله ﷺ وسبطه وسيد شباب الجنة.

اللهم لطفك.. اللهم اكفنا كل جاهل متكبر جبار.. يا الله.. !

---

(1) انظر "مجمع الزوائد ومنبع الفوائد" للحافظ الهيثمي، "مجابو الدعاء" لابن أبي الدنيا.

٦٤- نهاية الحاسدين

الحسد داء قديم.. يحصل بسببه ظلم الآخرين.. وإيذائهم.. والحاسد مغتاظ مقهور على من لا ذنب له.. وكانت العرب تقول: قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يكفي من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك.

ويقول الله عز وجل في بعض الآثار القدسية الحاسد عدو نعمتي، متسخط لفعلتي غير راض بقسمتي، وقالت العرب: لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقدح. وقال الفقيه أبو الليث السمر قندي -رحمه الله-: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود. أولاها: غم لا ينقطع، الثانية: مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة: مذمة لا يحمد عليها.

الرابعة: سخط الرب، الخامسة: يغلق عنه باب التوفيق.. فيا أيها المسلم.. اتق الله في نفسك.. ولا تؤذي بما لم يفعلوا زورًا وبهتانًا.. تذكر غدًا وقوفك أمام الله. وتذكر أن الدنيا لا تستحق أن نتحاسد فيها أو نتعادى، وأنت أيها المحسود اصبر على داء الحسود.. فإن صبرك قاتله.. فالنار تأكل بعضها. إن لم تجد ما تأكله. واعتبر بما في هذه القصة واستمع إليها:

روي أن رجلا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمه، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان.. وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه. إن لم أحتمل على هذا البدوي في قتله، أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني عنه، فصار

يتلطف بالبدوي، حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعامًا وأكثر فيه من الثوم، فلما أكل البدوي منه فقال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك، فإنه يكره رائحته، ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به، وقال يا أمير المؤمنين: إن البدوي يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه. فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم. فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح. فكتب أمير المؤمنين كتابا إلى بعض عماله يقول له فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله، ثم دعا بالبدوي ودفع إليه الكتاب، وقال له امض به إلى فلان. وائتني بالجواب فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير في نفسه أن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل. فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار، فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي افعل. قال أعطني الكتاب فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصد، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير: فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي، وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أيامًا ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فحضر فسأله عن حاله، فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع

الوزير بما ليس له به علم، وإنما كان ذلك مكرًا منه وحسدًا وأعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم، وما جرى له معه، فقال: يا أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوي واتخذه وزيرًا، وراح الوزير بحسده.

٦٥- الديان لا يموت

يا رب يا رب.

ما أحلمك! ما أكرمك! ما أصبرك على عبادك! يقولون عنك ما لا يليق بذاتك من الصاحبة والولد ويجحدون فضلك، وينكرون جميلك وأنت ترزقهم وتكلؤهم بالليل والنهار سبحانك من قائل ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**﴾.

نعم إنها لجرأة خطيرة وجرم فظيع وانحراف شنيع لأحد كبار الجلادين في السجن الحربي (باستيل مصر) الذي أخذ يلهب بسوطه أحد الضحايا وقد علقه كما يعلق الجزار بهيمته بحيث تكون الرأس إلى أسفل، وانهال عليه ضربًا فاستغاث المظلوم بالله فقال له الجلاد: لو نزل ربك من السماء فقد أعددت له زنزانة لأحبسه حبسًا انفراديًا هكذا إذا نسي الإنسان أصله وجحد ربه، حل عليه غضب الله ومن يفعل ذلك فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق. إنه يذكرنا بكلمة قالها فرعون مصر وذكر العلي العظيم في قوله: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**

فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

فاعجب معي يا أخي لهذا الطاغية الذي غره سلطانه فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قومًا فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم، وتأمل معي لهذا الذي ظن أن الله سبحانه وتعالى قد تدركه الأبصار، أو تحويه الأقطار، أو يؤثر فيه الليل والنهار، ونسي أو تناسى أنه هو الذي يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير !!

تنزه عن الشريك ذاته، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته واحد بلا عدد وقائم بلا عمد، ودائم بلا أمد سبحانه علا فقهر، وملك فقدر. كيف طوعت لهذا الجلاد نفسه أن يتجرأ على الذات الأعلى؟ فيصيح في فناء السجن بصوت منزعج كريه ويقول: إن الله لو نزل من السماء فقد أعددت له هذه الزنزانة. ولكن يزول العجب وتتهاوى علامات الاستفهام عندما نقرأ قوله عز وجل: ﴿**لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ ألم تر كيف فعل ربك بهذا الجلاد الطاغية؟ لقد جاء اليوم الذي دار الفلك فيه دورته، وغضب عليه سيده جمال عبد الناصر فأدخله السجن ليذوق من نفس الكأس المرة التي جرعها لألوف من الضحايا الأبرياء. وهكذا اقتضت سنة الله تعالى أن من أعان ظالمًا سلطه الله عليه. والظالم وجنوده وأعوانه

داخل دائرة المسئولية، قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾، وقال عز من قائل: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ**﴾ فماذا حدث؟ أفرج عن هذا الجلاد وسافر يوم عيد الفطر ليزور أهله؛ وبينما هو في الطريق الزراعي لا يدري ماذا خبأت له الأقدار، لقد ظن أن الكون يسير وفق هواه ونسي أن في السماء مملكة مكتوب على بابها ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ خرج عليه في الطريق الزراعي سيارة ذات مقطورة، فعصفت بسيارته، فوقع فريسة بين أنيابها ودخلت في عنقه أجسام صلبة، فأخذ يخور كالثور والدماء تنزف منه، فلم يكن هناك بد من فصل رأسه عن جسده وهكذا كان القصاص العادل من رب الأرض والسماء ﴿**فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**﴾.

يـا نـائم الليـل مـسرورًا بأولـه إن الحوادث قد يأتين أسحارًا

وهكذا الدنيا إذ حلت أمام الظالمين أوحلت، وإذا كست أوكست، وإذا جلت أوجلت، وكم من ملك رفعت له علامات، فلما علا.. مات[١] .

قال الحازمي عفا الله عنه:

أما الطاغية الآخر فهو (صلاح نصر) الذي لم يحمل من صفات

(1) مذكرات الشيخ عبد الحميد كشك (١٣٣-١٣٥) بتصرف ،

اسمه شيئًا، فهو جبار آخر متكبر سعى في الأرض فسادًا وطغيانا، وعذب مسلمين كثيرين، بغلايته الموجودة في قصره وفي أحد مسابحه المليئة بأسيد البطاريات الذي كان يغمس المسلمين فيها غمسا، ويعلقهم أشلاء فوقها وهم يصرخون ويستغيثون، ورائحة العذاب واللحوم المحترقة من أجسادهم وعظامهم الطاهرة من شدة الاحتراق تشم من أماكن بعيدة، وهو ينظر إليهم متلذذًا بفعله بهم وبنسائهم وبناتهم العذارى اللائي صورهن بأفلامه القذرة بعد أن فعل فعلته معهن وهو ما يندى له الجبين وتشمئز لفعله حيوانات لا يوجد بها ذرة من عقل، ولقد جاءت نهايته يومًا ما نهاية ذليلة تحت أقدام الجنود صارخًا مستغيثًا حتى الإغماء جزاء شتمه لأحد القضاة بعد هزيمة ١٩٦٧م والذي أودعه السجن ذليلا حقيرًا حتى أصيب بأمراض عديدة في جميع أجزاء جسمه كآلام المعدة والصدر، وهبوط تام في الجسم، وزرقة في الشفتين وأطراف الأصابع، وضربات القلب السريعة وضعف التنفس، وتصلب الشرايين والتهاب القولون، وفقدان نعمة الأبصار، حتى جاءت ساعة الوفاة فلم ير بقلبه الخير طوال حياته ولم يسعد بالنور عند مماته، ومات عام ١٩٨٢ في الخامس من شهر مارس.

٦٦- النصر مع الصبر

حكي أن امرأة من بني إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة فسرقها سارق فصبرت وردت أمرها إلى الله تعالى ولم تدع عليه، فلما ذبحها السارق ونتف ريشها نبت جميعه في وجه فسعى في إزالته فلم يقدر

على ذلك إلى أن أتى حبرًا من أحبار بني إسرائيل فشكا له: فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها من قال لها أين دجاجتك فقالت سرقت. فقال لقد آذاك من سرقها. قالت: قد فعل ولم تدع عليه. قال: وقد فجعك في بيضها. قالت هو كذلك، فما زال بها حتى أثار لغضب منها فدعت عليه فتساقط الريش من وجهه، فقيل لذلك الحبر من أين علمت ذلك؟ قال لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتقم لها الله، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه، فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة ويحمد الله تعالى، ويعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرًا، وأن المصائب والرزايا إذا توالت أعقبها الفرج والفر عاجلا.

فائدة:

وذكر بعض السلف الصالح أنه رأى رجلا ممن يخدم الظلمة بعد موته بمدة في حالة قبيحة، فقلت له: ما حالك؟ قال: شر حال.

فقلت: إلى أين صرت؟ قال: إلى عذاب الله. قلت: فما حال الظلمة عندك؟ قال: شر حال، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

عجيبة: حكي في الإحياء[١] أن شخصًا كان له بقرة وكان يشوب لبنها بالماء ويبيعه، فجاء السيل في بعض الأودية وهي واقفة ترعى فمر عليها فغرقها فجلس صاحبها يندبها فقال له بعض بنيه: يا أبت لا تندبها فإن المياه التي كنا نخلطها بلبنها اجتمعت فغرّقتها.

(1) يعني: كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ.

فهرس موضوعات

نهاية الظالمين الجزء الثالث